

مقدمة يا ولدى

لم أكن أتوقع أن أبدأ كتابة هذه الكلمات لك فى شهر يناير سنة 1957.. أى بعد شهرين فقط من مولدك.. أثناء اعتداء بريطانيا، وفرنسا وإسرائيل، على وطننا الحبيب مصر ..

وستقرأ يا بنى فى كتب التاريخ عن هذه الحقبة ، ولكننى عشتها لحظة بلحظة وانفعالا بانفعال ، عشتها كما عاشها كل مواطن مصرى - وقتذاك - كانت تظلمه سماء مصر وترتوى عروقه بماء نيلنا المقدس .. ولن أحدثك حديث الكتب أو المؤرخين ..وانما سأحدثك حديثا فيه من قلبى، وفيه من عقلى، وفيه من وجدانى ..

وكما قلت لك يا بنى .. لم اكن أتوقع أن امسك بقلمى لكى اسطر لك هذه الكلمات، وعمرك على الأرض لم يتجاوز الشهرين .. فقد ولدت يا بنى وأنا فى شغل شاغل عن بيتى وأهلى.. لقد كنا نعيشى يا بنى فى تلك الأيام من شهر نوفمبر سنة 1956 ونحن نخوض معركة الموت والحياة من أجل مصر أمانا .. معركة نسينا فيها الأهل والعيال ، نسينا فيها كل شىء ، وتضاعلت، وانمحت من نفوسنا كل عاطفة لأهل او ولد الا عاطفة واحدة كانت تشغل كياننا فى ليلنا ، ونهارنا ، بأعنف مما يحسه الفرد نحو أهله وولده .. وكانت تلهب عزائمنا للدفاع عما هو أقدس وإجل من الأهل والمال والولد .. وهى مصر..

لقد جاءنى أول خطاب عن قرب قدومك وأنا لاه عنك.

إننى أذكر تلك الليلة من شهر نوفمبر 1956 .. وكنت كعادتى امضى سحابة النهار فى مبنى مجلس قيادة الثورة .. إلى جوار الرئيس جمال ، مع بقية الزملاء.. حيث كنا نتلقى الأتباء ونضع أنفسنا تحت تصرفه .. وكنت انصرف بعد ذلك إلى

مكتبى فى " جريدة الجمهورية " لكى أكتب مقالى.. وأظل حتى أقرأ آخر برقية من برقيات وكالات الانباء ..

وفى ذلك اليوم ، وعلى خلاف عادتى بقيت فى مبنى مجلسى قيادة الثورة . . وكتبت مقالى من هناك .. وأرسلته إلى الجريدة .. وبينما أنا اناقش بعض الزملاء اذ دق جرس التليفون فى غرفة نوم الرئيس جمال .. وكنت أنا المطلوب، وأبلغنى انك فى الطريق الى الدنيا يا بنى.. وأن والدتك تنتظر قدومك بين لحظة وأخرى ..

وصدقتى يا بنى . . أننى نسيت كل ما يتعلق بك بمجرد أن وضعت سماعة التليفون ، ورحت أكمل حديثى السابق مع الزملاء .. ففد كنا نتناقش فى مختلف الاحتمالات لتى قد يلجأ إليها الأعداء . بعد أن اتضحت نواياهم الحقيقة . وهى تحطيم مقاومة الشعب المصرى كلية . والقضاء على قواته المسلحة قضاء تاما.. وكانوا قد توسلوا بمؤامرة 29 اكتوبر سنة 1956 المشهورة لكى يحققوا هذه الأهداف.

وحين أيقظونى فى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى لكى ينبئونى بأنك أتيت الى عالمنا ، وأنك ولد . لم يغير هذا الخبر من الأمر شيئا .. ولو إنه فى ظروف أخرى كان يمكن إن يكون حدثا خطيرا . فستعلم يا بنى ، أننا نحن الفلاحين نمتبر ولادة الولد انتصرا . . لا لشىء إلا لأنه ولد وليس بنتا . . ولعل هذه العادة مورثة عن أجدادنا العرب الذين كانوا يحتفلون بالولد ويتجاهلون البنت . . وقد نشأت فى قرينتنا على هذه التقاليد .. ولو أنه قد يكون لى رأى آخر اليوم .. الأ اننى كأى فلاح فى قرينتنا . لا أستطيع إلا أن أحترم تقاليد بيئتنا السانجة الطيبة .. فهذه التقاليد هى عصارة تجارب الأجيال .. وهى التى علمتنا السماحة وخرست فى نفوسنا اليافعة مبادئ الخلق والشرف والكرامة ..

الا أنه فيما يتعلق بك يا بنى .. فان المسألة فى نظر بيئتنا لها أهمية أخرى غير ما تمليه تلك التقاليد . فقد ولدت يا بنى ، بعد أربع بنات .هن اخواتك اللاتى يكبرنك. وخامسة ماتت وهى طفلة ..

فالأمر والحالة هذه كان يوجب الأحتفال بمقدمك يا بنى .

ولكننى على العكس من ذلك تماما، لم أفعل شيئا أكثر من أن أشكر الطبيب الذى تولى أمرى .. و عدت. إلى سريرى فى جريدة الجمهورية لكى أصيب بعض الراحة لما يأتى به الغد .

لم احتفل بك اذن يا بنى.. بل لم افكر لحظة واحدة فى هذا الأمر.. ولم أحس أبدا بما يحس به كل أب فلاح جاءه ولد .. ليسى لأن المناسبة كانت لا تستحق الاحتفال، وليس لأننى أسوى فى عاطقتى بين البنت والولد ، ولكن كان أكبر وأجل من كل ذلك. . .

كان هناك أولا أبناؤنا وأطفالنا ، ونساؤنا ، الذين نفقدهم كل يوم بل كل ساعة فى بورسعيد ، وفى سيناء وفى غزة وفى جميع أنحاء مصر . . بفعل قنابل بريطانيا وفرنسا وأساطيلهما ، مضافا إليها قنابل حلف الاطلنطي وأساطيله وعتاده بأكمله :
أنور السادات

الفصل الأول

* عمك جمال وأسلحة حلف الاطنطى

* أقدم وثيقة لاعلان حق الإنسان

عمك جمال واسلحة حلف الاطنطى

حلف الاطنطى يا بنى .. كان تنظيما أنشأته أمريكا ، وبريطانيا وفرنسا وجمعوا له دول غرب أوربا لكي يفرضوا حصارا على روسيا ، يكون من شأنه أن يبعث الراحة فى أعصاب البعض التى تمزقها كلمة الشيوعية ويكون من شأنه أيضا ان تعيش بريطانيا وفرنسا على أموال أمريكا . وصدقاتها، وحماتها بمد أن خرجت هتان الدولتان من الحرب الثانية مفلستين وضعيفتين ..

ولقد كان من الممكن أن تعيش بريطانيا وفرنسا على أموال أمريكا وحماتها عيشة شريفة . ولكن هاتين الدولتين على ماتعودتا عليه ، لن تستطيعا أبدا العيش بشرف.. فانه ما إن انتهت الحرب العالمية الثانية حتى راحت بريطانيا وفرنسا تطبقان أحط أساليب الاستعمار ضد الشعوب الصغيرة بقصد السيطرة على مواردها وحرمانها من ممارسة سيادتها.. واستخدمت الدولتان قى ذلك دولارات أمريكا وأسلحة أمريكا عن طريق حلف الأطنطى من جهة .. ومن جهة أخرى استخدمت هاتان الدولتان السارقتان ، اسم أمريكا ونفوذها وتأبيدها ، فى المجال الدولى عن طريق هيئة الامم المتحدة ، لكي يجعلنا من شريعة الغاب دستورا للمعاملات فى هذا العالم ..

معذرة يا بنى.. ولكننى إريد أن أقول لك أن أسلحة هذا؟ الحلف، وأساطيله، وطائراته، ودباباته ، هى التى كان مقدرا لها ان تفتك بقوات مصر المسلحة تحت ستار إسرائيل لولا، يقظة جمال عبد الناصر الذى أصدر أوامره بسحب قواتنا من سيناء ، وتوحيد الجبهة فى اللحظة الحاسمة ..

اسلحة حلف الأحنلنطى هذه هى التى جاءت الى مصر لكى تخلع عمك جمال عبد
الناصر.. وتقضى على الثورة .. لكى تعود مصر من جديد مستعمرة ليس لبريطانيا
وحدها، هذه المرة ، وانما لبريطانيا وفرنسا واسرائيل . .

أسلحة حلف الأطنلنطى هذه .. هى التى جاءت الى مصر لكى تقضى على القرمية
العربية ، وزحفها الصاعد المقدس .. فزعماء الغرب لم يكفهم أن يحصلوا على
البتترول ، ولا ان يستخدموا قناة السويس فى حرية وأمن . وانما هم يريدون أن
يستعدونا ويذلوا رقابنا ، ويحصلوا ايضا على البترول، ويملكوا القناة ويقضو إلى
الأبد على كل وعلا ، أو حرية . أو استقلال ، فى دنيا العرب وفى مصر على وجه
الخصوص. . .

وكانت هناك ثانيه معركة التحرر للشعوب الصغيرة ، التى كتب علينا فى لوح
القدر ان نخوضها نحن فى مصر على الخصوص ..

وتاريخ هذه المعركة فى مصر يا بنى قديم ومجيد .. بدأ
قبل أن أولد، وقبل أن يولد جدك : بل قبل أن يولد جد جدك...

تاريخ طويل كتبه أبائنا واجدادنا بدمائهم عبر القرون .. وكان كل جيل يسلم الأمانة
الى الجيل الذى يليه، وتصميم شعبنا فى كل مرحلة صلب لا يلين.. ان كل معركة
خاضها شعبين ، كانت تزيده تصميميا على تصميمه.. وكل دماء سالت من الأحرار
على أرضنا ، كانت تغذى شجرة الحرية التى تمد ظلالها اليوم على وادينا الأخضر
من اقصاه إلى أقصاه ..

لم يستسلم شعبا إيدا يا بنى للغزو الأجنبي ، ولا للطفيان
.. وحين كان يغلب هذا الشعب على أمره من قوى متفوقة عليه ، كان يعمد من
فوره الى المقاومة الشعبية فى تصميم واصرار، حتى ينتصر نى آخر الأمر على
أعدائه ..

وكما كانت لشعبنا فى الماض السحيق حضارة ومدنيه ،
تنطق الى يومنا هذا بأروع انتصارات بناءة فى العلوم ، والفنون ، الهندسة، والبناء
، والطب ، والفلك .. فان تاريخنا فى ماضينا القريب يسجل لهذا الشعب سجلا
حافلا بالكفاح من أجل القيم البشرية التى يظن البعض فى الغرب بأنهم حمايتها ،
وهم الذين داسوها فى الماضى ، ويدوسونها كال يوم فى وقاحة، وبلا أدنى خجل او
حياء ..

أ قدم وثيقة لإعلان حقوق الإنسان

ففى سنة 1795 الميلادية إى منذ مائة وستين عاما من يومنا هذا ، حين كانت دول كثيرة من التى تطلق على نفسها دولا كبرى أو عظمى اليوم ، لا تزال شعوبها تجهل القيم الحضارية والحقوق الأساسية للإنسان ، كان الشعب المصرى يفرض أرادته على حكامه ، فى وثيقة أجمع المؤرخون المصريون والأجانب على انها بحق ، وثيقة اعلان حقوق الإنسان ..

فى سنة 1795 قرر الشعب المصرى ما يأتى : -

1 - إلا تفرض ضريبة إلا اذا أقرها مندوبوا الشعب . .

2 - أن ينزل الحكام على مقتضى أحكام المحاكم .

3 - أن لا تمتد يد ذى سلطان إلى أى فرد من أفراد الأمة إلا بالحق والشرع ...

وذهب الشعب الى إبعد من ذلك فاجبر حكامه فى ذلك الوقت على الإعتراف ف

هذه الوثيقة بخطئهم وإنهم " تابوا ورجعوا . . "

واليك يابنى القصة كما يرويها الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المصرى

الكبير:

" فى أوائل شهر ذى الحجة من عام 1209 هجرية (1795 ميلادية) جاء رجال من

بليبس الى المشايخ فى الأزهر يشكون الظلم ، وتقابلوا مع الشيخ الشرقاوى

يعنون سخطهم عن الضرائب الباهظة، والاستبداد الجاهل. واستشعر الشيخ

الشرقاوى أن الشعب جاد فى سخطه كل الجد ، وأن النفوس تغلى غليانا مكبوتا لا

تؤمن نتأجه .. واستشعر فى نفسه تلك المسئولية الدينية ، والوطنية اللتين اشتهر

بهما رجال الدين فى ذلك العهد فلم يحول ان يهدىء من نفوس هؤلاء الثائرين ،

ولم يحاول أن يقول لهم أنهم أولوا الأمر، لم يثبط ارادتهم .. وإنما اشعل جذوتهم،

وأحسن توجيههم . .

غضب الشيخ لكرامة الشعب.. فتوجه الى الأزهر، وجمع

المشايخ ، وقفلوا ، أبواب الجامع ، وأمروا الناس بترك الأسواق والجوامع والمتاجر .. وركب الشيخ فى اليوم التالى وخلفه خلق كثير ، الى منزل الشيخ السادات .. وكان منزله قريبا من منزل إبراهيم بك شيخ البلد ، الذى لم يلبث حين رأى هذا التجمع أن أرسل مندوبا عنه – هو أيوب بك الدفتردار إلى العلماء ، وهم قادة هذا الجمع الشعبى .. ووقف المندوب بين أيديهم يسألهم عن مرادهم فقالوا : نريد العدل الذى لا تقوم حياة بدونه..

وابطال الحوادث ، و المكوسات.

ونريد رفع الظلم الذى هو أساس الهوى الى الحضيض . .

ونريد ازالة الجور لأن الجور مرتعه وخيم ..

نريد أقامة الشرع لأنه شرع الله وقد أمنا به ..

ونريد أبطال الحوادث وقرار الأمن . .

كما نريد رفع المكوسات .. لأن الضريبة بغير أستئذان الشعب، لا يمكن ان

تكون شرعية ولا مقبرلة بحال . .

وكانت ملحمة كلامية بين العلماء ومندوب إبراهيم بك شيخ البند.. قال العلماء

فيها كلمة الحق .. لأن الخوف من غير الله شرك جزاؤه الخلود فى النار..

قالوا له " ان الضرائب لا تحتمل " ..

وقال الدفتردار : " ان النفقات باهظة " .

قال العلماء: " وما الباعث على الاكثار من النفقات، والأمير يكون أمير

بالعطاء لا بالأخذ ؟ "

وبلغ الأمر غايته . .

وخشى ابراهيم ومراد حكام مصر وقتذاك مغبة الثورة . . فأرسلوا

يسترضون العلماء ويستجيبيون لمطالبهم ..

واجتمع الأمراء فى اليرم الثانى . . وأرسلوا الى العلماء يرجون حضورهم ..
وكان ذلك فى منزله ابراهيم بلث.. فحضر منهم الشيخ السادات ، والسيد عمر مكرم
، والشيخ الشرقاوى ، والشيخ البكرى ، والشيخ الامير، وكانوا جميعا من رسل
الثورة وقوادها الظاهرين . . وطال الجدل بين الشيخ والأمراء مرة أخرى ..
احندم النقاش بين الشعب وحاكميه. . بين شعب أعزل الامن الأيمان ،
والتصميم.. وبين حاكم مسلح تعود الطفيان . .

وأعلن الحاكمون أنهم " تابوا ورجعوا " .. وأنهم "سيشدون على أيدى
أتباعهم ، ليكفوا عن سلب أموال الناس " والأهم من كل ذلك ان قاضى القضاة
كان موجودا فى هذا
المجلس ..، وأن وثيقة رسمية سجلت على الأمراء أمضاها الوالى العثمانى ،
وأمضاها ابراهيم ومراد .

كان تسجيل هذه الحقوق فى حد ذاته معنى من أخطر المعانى فحقوق الشعب
حقوق مشروعة .. ومطالبه مؤيدة وقاضى قضاة البلد مختص بتسجيل هذه المطالب
.. ودمغ هذا الصك بالدمغة الرسمية والشرعية، وهى وثيقة لحقوق الإنسان كأقدم
ما تكون الوثائق ، أعلنها شعب مصر منذ مائة وستين عاما ، ليفهما لناس عن هذا
الشعب غير الذى يحاول المستعمون واذنابهم ان يبقوه فى الأذهان ، وليدرك العالم
أن مصر العظيمة فى القديم ، كانت هى هى مصر البارة بالإنسانية ، والحريصة
على كرامة الفرد ، فى تاريخها الحديث . .

!ت سطور هذه القصة الساذجة لتعكس يا بنى روح شعب مصر الوادع الصبور ،
المكافح .. وتعكس فى نفس الوقت مدى فهمه منذ القدم للمعانى ، والقيم الإنسانية

فمبدأ عدم فرض الضريبة الا إذا أقرها مندوبى الشعوب ،

وهو الذى نادى به شعب مصر عام1795 وأرغم حكامه على التسليم به ، هو إروع
دليل على ما لشعب مصر من وعى ديمقراطى أصيل منذ القدم .. وعى ليس مفتعلا

ولا مدسوسا ، أنما هو وعى من صميم البيئة المصرية التى ورثت على مر الأجيال والسنين ، تقاليد حضارات مجيدة .. كانت كلها حضارات علم وبناء وعمران . . وانظر يا بنى الى الحوار الذى حوته هذه القصة ، والذى دار بين ممثلى الشعب وممثلى شيخ البلد الحاكم .. ان الثورة الفرنسية كلها لتتضاءل أمام المغزى العميق لهذا الحوار.. فلقد أسفرت الثورة الفرنسية عن مبادئ ثلاثة هى ، الحرية والاخاء والمساواة ، لم تلبث أن أصبحت فى فرنسا ذاتها وأثناء الثورة الفرنسية نفسها شعارا للقتل والتدمير بين الفرنسيين الثوار أنفسهم .. ثم ما لبثت هذه المبادئ، ان صدرتها فرنسا الى الخارج على صورة استعمار خبيث يفتك بالشعوب البريئة ، ويسلبها إرزاقتها .. ويقتل النساء ، ويفتك بالاطفال ، ويغتصب الأرض ، ويجعل من الانسان شيئا أحط من الحيوان .. كل هذا باسم الحرية والاخاء والمساواة ..

قارن هذا يا بنى بوقفه شعب مصر عام 1795 وهو يقرر فى الحوار البسيط، أخطر وأعظم المبادئ التى تحفظ لهذه البشرية قيمتها ، وللإنسان حقوقه وكرامته ..

ان العدالة الاجتماعية التى لم يعرفها العالم الا حديثا ، قررها شعب مصر فى حوار الساذج مع حكامه ، حين اشتكى ممثلو الشعب من فداحة الضرائب .. فرد الدفتردار ان النفقات باهظة .. فكان رد الشعب :

((وما الباعث على الأكتار من النفقات والأمير يكون أميرا بالعطاء لا بالأخذ

((

أتعرف يا بنى ماذا تحويه هذه العبارة الهادئة المرسلة فى غير تكلف ولا غرور

؟ . .

أنها تعنى أن الأمير أى الحاكم فرض عليه أن يرفع عن كاهل رعيته الأعباء .. فلا يكلفها من النفقات الباهظة ما لا تطيق... وأن الحاكم لا يستحق تأييد شعبه ، الا اذا كانت سياسته هى العطاء أى توفير الحياة الكريمة لجميع افراد هذا الشعب باعطائهم حقوقهم ، وأعطائهم فرصا

متكافئة في الحياة . . . واعطاء الشعب نصيبه العادل في أمواله وميزانيته.. فلا يستأثر لنفسه ، ولا لحاشيته ولا لفئة دون فئة بما يكون ملكا لهذا الشعب .
وهل تكون العدالة الاجتماعية غير هذا المعنى..؟ أو هل تفسر العدالة الاجتماعية بغير هذا التفسير.. ؟

معذرة يا بنى فقد اكون قد أطلت عليك.. ولكننى كان لا بد لى أن اذكر لك شيئا عن تاريخ بلادك التى قدر لها أن تحمل عبء معركة التحرير عن الشعوب الصغيرة فى أيامنا هذه ..

واردت أن أربط ماضينا بحاضرنا ، قبل أن اروى لك عن المعركة التى شغلتنى عنك ، وألهتنى عن قدومك ..

فكما قلت لك يا بنى.. كتب علينا لوح القدر أن نخوض

نحن فى محسر معركة التحرر باسم جميع الشعوب الصغيرة .. ومن سخرية القدر أيضا، ان بعض حكام هذه الشعوب الصغيرة لا يجهل هذه المعركة فحسب ، وانما هم يحاولون تضليل شعربهم فى هذه المعركة الفاصلة فى تاريخ البشرية ، ومع ذلك فنحن مصريون علي تحقيق أهدافنا لا من أجل الشعب المصرى وأمتنا العربية فقط وإنما من أجل الشعوب الصغيرة المغلوبة التى تؤمن بالمثل التى نؤمن بها، المثل التى حارب من أجلها؟ أبائنا وأجدادنا ، فى تصميم وايمان .

إننا نخوض هذه المعركة منذ طفولتنا يا بنى ، ولا تعجب

لقولى ، فقد نشأنا فى جيل كان كل ما يحيط به هو المتناقضات.

والسنين التى عشتها فى القرية قبل ان أنتقل الى المدينة يا بنى، ستظل بخواطرها وذكرياتنا زادا يملأ نفسى ووجدانى بالصفاء والايمان ، فهناك تلقيت يابنى اول دروس فى هذه الحياة ..

تعلتها على يد الأرض الطيبة السمحة ، التى لا تبخل على الناس بالزرع والثمر

...

وتعلمتها من سماء قريتنا الصافية المشرقة ..

تعلمتها فى ظل الجميزة الخضراء الصامدة ، وعلى إغصان الصفصافة الخجول
الوديعة ..

تعلمتها على حافة الجدول الصغير الذى ينقل إلى الحقول تريقاق الحياة فى رضى
وقناعة ..

تعلمتها فى ظلال الأمسيات البريئة مع زملائى من شباب القرية ، ونحن نلعب
تحت ضوء القمر فى شوارع القرية الساكنة الهاجعة ..
وتعلمتها أيضا على أستاذى الحبيب .. جدتى . . .

www.anwarsada.com

